الإســـلام فى دراسة توينبى للتاريخ(*)

للأستاذ فؤاد محمد شبل

عرض المؤرخ العظيم أرنولد توينبى لموضوع الإسلام والحضارة الإسلامية في جميع أجزاء موسوعته التاريخية وبخاصة في الأجزاء السابع والثامن والتاسع والثاني عشر . كما أفرد للإسلام – كعقيدة دينية – مكاناً بارزاً في كتابه An Historian Approach to Religion . ويشهد للإسلام في هذا الكتاب بأنه أكثر العقائد الدينية في العالم اتفاقاً مع المنطق وأشدها صرامة في الإيمان بمبدأ الوحدانية الجليل وأعظمها وضوحاً في إدراك الإستشراف الإلهى وتسامى الذات الإلهية .

وسأعرض في دراستى هذه لطائفة من الجوانب الرئيسية التى عرض لها العلامة توينبى للإسلام كعقيدة دينية وحضارة ومجتمع مع بيان رأيه في موقف العالم الإسلامى في عالم القرن العشرين .

١ – انبعاث الاسلام

يسترعى توينبى الأذهان إلى ما صحب إنبعاث الإسلام من مظهر درامى يفوق كثيراً ما صاحب ظهور الديانتين العالميتين الأخريين : المسيحية والبوذية .

فإن حياة السيد المسيح ووفاته – كما يقول – قد مرتا دون أن يلتفت إليهما أحد ، عدا جماعة صغيرة غامضة تألفت من مريديه من يهود الجليل . ويستمد الباحث معلوماته عن رسالته من أسفار الكنيسة المسيحية إطلاقاً . إذ تكاد أن تخلو المؤلفات التى كتبت في إبان القرن المسيحى الأول (سواء باللاتينية أو اليونانية أو الآرامية) من أية إشارة أو تلميح إلى هذا الحدث العظيم .

(*) محاضرة ألقيت بدار الجمعية مساء الاثنين ٥ من فبراير سنة ١٩٦٨

والحق — كما يقرر توينبي — لم يصبح للمسيحية تأثير سياسي ودينى على العالم إلا بعد رسالة السيد المسيح بثلاثمئة سنة وبفضل اعتناق الأمبراطور قسطنطين المسيحية ولم يغدُ للبوذية دور بارز في السياسة الدولية إلا بعد وفاة البوذا بمائتى سنة وبفضل اعتناق الأمبراطور آشوكا لها .

أما الإسلام ؛ فلقد أخذ تأثيره على مجريات الأمور العالمية يعظم في غضون حياة الرسول نفسه . بل لقد تولى هو شخصياً صياغة تلك المبادىء التى أثرت في السياسة العالمية ولا تزال تؤثر فيها حتى اليوم . فبعد ما استقر المقام بالنبي في يثرب : دلل على أنه عبقرية سياسية إلى جانب كونه صاحب صاحب رسالة دينية عظمى .

ولقد استطاع الرسول قبل وفاته أن يرغم طبقة مكة الأوليجاركية (متمثلة في قريش) على الإذعان لتعاليمه . وتبدّى حذقه السياسى ونبل أخلاقه وسماحة نفسه في الشروط المعتدلة غاية الاعتدال التى صالح على أساسها أعداءه . وأمكنه بعد فتح مكة أن يمد سلطانه على جزء كبير من شبه الجزيرة العربية ، وأخذت قواته تغير على مشارف الإمبراطورية الرومانية المجاورة لشبه الجزيرة . فكان ذلك إرهاصاً باستيلاء أتباعه بعد وفاته بعشرين سنة على جميع أملاك الإمبراطورية الساسانية وعلى أفضل أجزاء الإمبراطورية الرومانية : أى سوريا بمعناها الشامل ومصر .

ويعزو بعض المؤرخين ظاهرة انبعاث الإسلام على هذه الصورة الثورية وتوفيقه الساحق في الميدانين العسكرى والسياسى خلال فترة تجاوز ثلاثين سنة منذ هجرة الرسول ، إلى المدينة إلى عدم ارتباطه بقيود دينية وفلسفية تقيده بغيره من العقائد الدينية والتقاليد . فالمسيحية ارتبطت بالديانة والتقاليد اليهودية ارتباطاً وثيقاً ، كذلك ارتبطت البوذية بالتقاليد والفلسفة الهندوكية .

ولا يرضى توينبي — إطلاقاً — عن هذا التفسير . فإنه يسلّم بإعجاز الإسلام في انبعاثه وفي استيلائه بضربة واحدة على أملاك الإمبراطورية الساسانية وعلى سوريا ومصر ؛ إلا أنه يبدى أن الإسلام لم يوفّق في التأثير

على سكان المناطق التى غزتها جيوشه بتغيير أنماطها الدينية والفنية والثقافية إلا ببطء يماثل تأثير المسيحية والبوذية في المناطق التى استقرت فيها هاتان الديانتان العالميتان . فمن رأيه أن في الوسع إخضاع الناس سياسياً وحطمَ مقاومتهم العسكرية ، لكى تكمُن الصعوبةُ البالغةُ في تعديل منحاهم التفكيرى . ولقد استمرت عملية الصياغة الفكرية ستة قرون ، ولما تُستكمل حتى الآن بدليل وجود أقليات مسيحية ومجوسية ويهودية في العالم الإسلامى في الوقت الحاضر بفضل تسامح المسلمين مع أهل الكتاب تطبيقاً لأحكام القرآن الكريم . كما يردُّ توينبى توفيق الإسلام في الفوز بولاء الملايين من أتباعه إلى تسامحه مع تقاليد تلك الشعوب التى تحوّلت إلى الإسلام واستيعابه الكثير من تراثها القومى بما لايضير وجوده ومبادئه الأساسية .

وبالإضافة إلى الجانب السياسى من ظاهرة الإسلام : ثمة جانب آخر يأخذ بألباب الباحثين الأوربيين ويتجلى في المكانة الرفيعة التى تشغلها اللغة العربية منذ أن قرر الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان اتخاذها لغة الإدارة في جميع أنحاء البلاد الخاضعة لسلطان الإسلام . على أن توينبى يعتبر المصنفات الأدبية أعظم المجالات التى انتصرت فيها اللغة العربية . ويدلل على رأيه بأن مصادر التاريخ الإسلامى منذ حياة الرسول حتى الآن تتسم بالغزارة الفائقة وأن لكثير منها أهمية فائقة للمؤرخين . وبالأحرى ؛ يتيسر بفضل المصنفات الأدبية العربية تتبع سيرة الرسول بالتفصيل ، وهذا ما لايتوافر للباحث في حياة السيد المسيح. ويحتم هذا على الباحثين الغربيين — كما يقول توينبى— الإلمام باللغة العربية ليتيسر لهم الإحاطة بتاريخ العالم الإسلامى منذ انبعاث الإسلام ، وبخاصة إن رغبوا في دراسة تاريخ الشرق الأوسط بالذات دراسة نزيهة صادقة ، ولا سيما أن معظم المراجع العربية لم يترجم إلى لغة من اللغات الأوربية .

ولقد تراءى للعالم الغير العربي وقت انبعاث الإسلام أن اندفاع العرب يماثل اندفاعات البدو المتحدثين باللهجات السامية على كرّ العصور والأحقاب. إذ يسجل التاريخ قبل البعثة المحمدية اندفاعين للعرب :

الأول – في إبان القرن الثاني قبل الميلاد وقتما أخذت قبضة الإمبراطورية السلوقية تتراخى عن الهلال الخصيب .

الثاني– خلال القرن السابع قبل الميلاد عندما بدأت الإمبراطورية الآشورية تتداعى تحت ثقل الأعباء المالية التى ألقتها هى بنفسها على عاتقها.

وسبق هذين الاندفاعين العربيين اندفاع أقوام الآراميين والعبرانيين والكلدانيين خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد وقتما شرعت الدولة الحديثة في مصر الفرعونية تنهار .

ولم يكن اندفاع العرب وغيرهم من الأقوام السامية يقل قوة في هذه المرات عن اندفاعهم إبان القرن السابع الميلادى . بيد أن الامبراطورية الإسلامية قد اتسعت في غضون حياة جيل واحد وانبعثت من نواة صغيرة للغاية : مدينة دولة متفردة تسيطر على واحة مفردة . ويرد الفضل في هذا التوفيق المذهل للعقيدة الإسلامية وحدها .

وفي ظل حكم النظام الأموى الذى تمركز في سوريا واتخذ دمشق عاصمة كانت الدولة الإسلامية – أولاً وقبل كل شيء – دولة وارثة للإمبراطورية الرومانية . ويرى توينبي أن إمارة الغساسنة وبعدها إمارة الزباء قد أرهصتا بغلبة العرب في نهاية المطاف على الدولة الرومانية . ويستدل على قوة التأثير الهليني بتزيين هشام بن عبد الملك قصره بزخارف هلينية ، بل وإيثاره الثقافة الهلينية على الثقافة الإسلامية .

وأصبحت للدولة الإسلامية بعد غزو العراق وفارس وسوريا ومصر وارثة للإمبراطورية الساسانية مثلما ورثت مُلك الدولة الرومانية . وبفضل موارد العراق الاقتصادية بالذات– وفي ظل حكم العباسيين – تحوّلت الدولة الإسلامية إلى إمبراطورية كبرى في عداد الإمبراطوريات العالمية :

البارثية ، السلوقية ، الأخيمينية ، البابلية الجديدة . . . حتى الامبراطورية الأكّادية : تلك الامبراطوريات التى هيأت الوحدة السياسية للهلال الخصيب خلال القرن الثالث قبل الميلاد .

وفي معرض الكلام عن انبعاث الإسلام ، يقارن توينبى بين حالة المجتمع وقت انبعاث كل من الإسلام والمسيحية :

فأولاً : تبلورت مهمة المسيح في أذهان اليهود في خلع نير الإمبراطورية الرومانية من على كواهلهم ، وأن يقيم مسيحهم لهم مكانها إمبراطورية دنيوية يكونون فيها الجنس السيد . ولن يوفّق مسيح اليهود في إنجاز غاية اليهود المرتجاة إلا بفضل تأييد « ياهوى» ربهم وحاميهم . فإن افتقر إلى هذا السند الإلهى ، كان الفشل حليفه والإخفاقُ رائدَه . وهذا مصير جابهه في الواقع كل زعيم يهودى انتحل لنفسه لقب المسيح وانتضى السيف ضد القوة الرومانية . فلقد جلب بفعلته الكوارث على نفسه وعلى الجماعة اليهودية. إذ كان السلطان الروماني يحظى بالسيطرة المطلقة وفي مركز منيع لاينال ، وكان مجرد توجيه تهمة انتحال لقب المسيح إلى أى يهودى سببا يدعو لبطش السلطات الرومانية به . وهذا ما فعله خصوم عيسى عليه السلام من اليهود الذين رأوا في رسالته الروحانية تهديداً لنزعتهم المادية . فلاصحة للتهمة التى ألصقها أعداؤه به ، لأنه لم يُذِع قط بأنه المسيح المنتظر ، وصدف عن استخدام العنف في شتى صوره لتأييد رسالته مثلما فعل من انتحلوا هذا اللقب من اليهود من قبل ، فأُعدموا لتحديهم السلطان الروماني .

ثانياً : ظاهر أن توينبى يميل للقول بأن البيئة قد فرضت على المسيحية في إبان نشأتها اللجوء إلى أسلوب الوداعة والمهادنة . أما بالنسبة للمجتمع الإسلامى الناشئ فلم يكن اصطناع أسلوب المسالمة واجتناب العنف ليحفظ حياة نبي يبشّر بدين يناهض الأوليجاركية المحلية الحاكمة . وكان محمدُ مواطنَ دولة مدينة تجيش بالفتن ، ولم يكن سلطانها السياسى يتعدى مساحة محدودة للغاية من الجزيرة العربية ، فكان من السهل على مناهضى طبقتها الحاكمة الانسحاب بعيداً عن متناول قبضتها . وهذا ما فعله النبى بهجرته إلى

المدينة حيث وجد فيها الملاذ من أذى قريش وتزعّم مجتمعها سياسياً ، وفي المدينة — كما يقول توينبي — تبدّت عبقرية محمد السياسية . أما السيد المسيح فما كان في وسعه الإفلات من سلطات الإمبراطورية الرومانية السائد في كل مكان .

ويؤكد توينبي أن المسيحية والإسلام أنموذجان واضحان لنوع واحد بعينه :

(أولاً) انبعث كلاهما بفضل التوفيق بين الآراء والمذاهب المتناقضة التي تخلّفت عن أنقاض حضارتين مندرستين .

(ثانياً) اتجهت الديانتان — كلاهما — للتبشير بمبادئهما للعالم بأسره. وهدف كل منهما لاجتذاب البشرية إلى مبادئه .

(ثالثاً) أرست الديانتان دعائمهما في بداية الأمر داخل نطاق دولة عالمية ، ثم وفّقت تدريجياً في الفوز بالولاء الروحي لسكان هذه الدولة . وأمكنت لهما الحياة بعد سقوطها ، بل وانتشرتا في أماكن أبعد من حدودهما .

(رابعاً) تأثرت العقيدتان والحضارات التي انبعثت عنهما بالعناصر السورية والهلينية على السواء .

٢ — تطور الاسلام السياسى

يعتبر توينبي إندفاع الإسلام آخر الانتفاضات التي استكملت طرد الهلينية من بلاد جنوب شرق جبال طوروس . وبه توّجت ردود الفعل ضد السيادة الهلينية التي ظلت في هذه المنطقة أمداً طويلاً . ويمتاز رد الفعل الإسلامي عن ردود الفعل السابقة بتبديه على الصعيدين العسكري والسياسي ، كما تجلى على الصعيد الديني كذلك ؛ في حين اقتصرت ردود الفعل السابقة على الصعيد الثقافي وتمثل في إنبعاث المذهبين : المينوفيستي (مذهب القائلين بأن للسيد المسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية) والنسطوري (مذهب القائلين بأن للسيد المسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة البشرية ويؤلهون الكلمة لأن بها تم خلق المسيح) ؛ انبعاثهما ضد الكنيسة البيزنطية والكنيسة الكاثوليكية ،

وضد اللغة اليونانية والنظام الروماني . واستفحلت مقاومة هذين المذهبين إلى درجة اندفعت كنيسة روما الكاثوليكية للتنكيل بالنسطوريين فلجأوا إلى حمى الدولة الساسانية . واضطهدت كنيسة بيزنطية المصريين أتباع المذهب المينوفيستى ، فلما نجح الفتح العربي لمصر وجدوا في حماه الأمن من بطش أعداء مذهبهم الدينى .

ومن نظريات توينبى التى أبداها في كتابه « دراسة للتاريخ» وأعاد ترديدها في كتابه An Histaripn Approach to Religion نظرية تطويع العقيدة الدينية لخدمة الأهداف السياسية للسلطات الدنيوية . ومن رأى توينبى أن العقيدة الإسلامية لم تسلم من هذا المصير مثلها في ذلك مثل الأديان : المسيحية والبوذية والزرادشتيه والهندوكية . وهو لايرضى — إجمالاً — عن إخضاع العقيدة الدينية لأهواء الساسة ونزواتهم . ويدلل على رأيه بأن العقيدة المسيحية قد انتهت إلى مصالحة بينها وبين السلطة الزمنية تنازلت بمقتضاها عن رسالتها الروحية بتولى أتباعها تنفيذ غايات الساطان وأهدافه الدنيوية مقابل إسباغ السلطة الدنيوية حمايتها على أتباع العقيدة الدينية . وشبّه ذلك بالاتفاق الذى تم بين فاوست والشيطان في رواية جوته المشهورة . فلقد انبنى على اتفاق رجال الدين والساسة أن تردى المبشرون بالعقيدة الدينية في أمور الدنيا فاندفعوا لاستخدام القوة العارمة في تنفيذ غايات تجافي روح المسيحية خاصة والنزعة الدينية عامة . ويعتبر توينبى تردّى المسيحية في معضلات السياسةأبشع الكوارث التى حلت بالمجتمع الغربي : ذلك لأن السيد المسيح قد أبى إلا أن تظل رسالته روحانية بحتة ، تقوده لمكابدة أهوال الصلب .

وبالأحرى ؛ يقرر توينبى أن العقيدة الدينية تبدأ أيديولوجية الطابع ثم يستخدمها السلطان الدنيوى لكفالة الغايات القومية وتحقيق أهدافه الخاصة . ويسوق مثلاً — بالنسبة للإسلام — استخدام الصفويين مذهب الشيعة الإمامية ، واستخدام الأتراك المذهب السنى . ولايقتصر استخدام العقيدة الدينية — لغايات سياسية — على السلطات الزمنية ، بل تستخدمها الجماعات القومية

التى غلبتها القوة الاستعمارية الغاشمة على أمرها وسلبتها استقلالها السياسى وهدّت ذاتيتها الثقافية . وخص توينبى بالذكر اعتناق المصريين — بإيحاء من الطبقة المثقفة — لوناً من المسيحية (أى المذهب المينوفيستى) يخالف المذهب المسيحى الذى اعتنقته جمهرة سكان الامبراطورية البيزنطية واتخذته السلطة الحاكمة مذهباً رسمياً والذى يستند على القول بأن للسيد المسيح طبيعتين : إلهية وبشرية ، وذلك عكس المذهب المصرى القائل بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح أى الطبيعة الإلهية . وبفضل تفارق المصريين عن مستعمريهم دينياً (أى أيديولوجياً) أمكنهم الحفاظ على جذوة القومية المصرية مشتعلة والحيلولة دون ذوبانهم المجتمع البيزنطى ، إلى أن وفد العرب .

ويدلل توينبى على صدق نظريته — بالنسبة للإسلام — في استخدام الأمويين العقيدة الإسلامية في إعادة تشييد الدولة الساسانية في صورة خلافة عربية ، مقتدين بالرسول نفسه الذى تحوّل الإسلام على يديه إلى دولة بفضل هجرته من مكة إلى المدينة ، وما يعنى ذلك من استخدام القوة عند الاقتضاء للحفاظ على كيان الدولة الإسلامية الناشئة وحطم العراقيل التى تحول دون انتشار الدعوة . ويعتبر توينبى تحوّل الإسلام من عقيدة إلى دولة ، نتيجة لامناص عنها لعناد أهل مكه ورعونتهم في مقاومة الدين الجديد مما قاد إلى قيام النبى بدور رئيس دولة في نفس الوقت .

وإذا كانت العقيدة الدينية تخسر الكثير من رسالتها الروحية وحيويتها أن استظلت برعاية السلطة الزمنية — وفقاً لرأى توينبى — لكنه يستثنى الإسلام من هذه القاعدة :

فالإسلام قد وفّق فعلاً في أن يصبح العقيدة الدينية لمجتمع أصابه الانحلال ، ونجح الإسلام على الرغم من إقحامه في الشئون السياسية منذ البداية ومضيّه في ذلك السبيل بطريقة قاطعة لم تُعهد في الأديان التى عرضت لها دراسة التاريخ . بل إن جنوح الإسلام إلى هذا التورط السياسى — وفق تعبير توينبى — بدأ أثناء حياة الرسول بل وعلى يد الرسول نفسه ، لا على يد آخر أقل منه شأناً .

وها هنا يُفرد توينبي بالجزء الثالث من موسوعته ملخصاً خاصاً لدراسة سيرة سيدنا محمد رسول الله السياسية ، إذ اعتبرها المؤرخ العظيم عاملاً من أهم العوامل وأبرزها في تاريخ الحضارات . ويقرر توينبي أن الرسول قد شيّد بعد عودته من المدينة إلى مكة أسس امبراطورية تكن مقارنتها بالامبراطورية التي شيدها قيصر بعد عودته من بلاد الغال إلى روما . إذ لم يمض على وفاة الرسول سنوات قليلة حتى أمكنت جيوش المسلمين في عهد الخليفة عمر أن تغزو أملاك الدولة الرومانية في سوريا ومصر فتستعيد إلى الوجود الدولة العالمية السورية التي قضت عليها الهلينية بفعل الغزو المقدوني ثم الروماني ، وأن تستولي في نفس الوقت على مجال الإمبراطورية الساسانية بأسره . وظلت هذه الإمبراطورية الكبرى قائمة قرابة الثلاثة قرون . وما هذا العمل السياسي الفذ ، إلا حاصل توفيق محمد السياسي في غضون مرحلة حياته السياسية الدينية .

وهذا التوفيق السياسي الشامل — كتعبير توينبي — قد أثّر تأثيراً عميقاً على مصير الإسلام حتى وقتنا الحاضر . وفي هذا التأثير يتبدى بجلاء تفارق الإسلام عن المسيحية :

فلقد اتجهت تلك العقيدتين — من الناحية السياسية — لسلوك السبيل الذي أشار به مؤسسها ، سواء بالسنة أو القدوة .

بيد أن الكنائس المسيحية — بصفة عامة — ما برحت تهتدي بوصية السيد المسيح « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . وعلى الرغم من أن الكنيستين الأرثوذكسية والبروتستانتية استثناءان هامان لهذه القاعدة ، فإن دمج هاتين الكنيستين في الكيان السياسي للدولة العلمانية التي كانت تستعبدانها قد ظل غير تام وما برح هذا الاندماج القاصر غير طبيعي .

ونجد العكس في حالة الإسلام : إذ ليست العلاقة بين الجانبين الديني والسياسي من نظام الدولة الإسلامية علاقة مصطنعة تعوّق سير الدولة وتقدمها إذ يلتئم الجانبان في وحدة أصيلة وأساسية بحيث ينتفي في علم الاجتماع الإسلامي مبرر السعي للتوفيق بين التشعّب القائم بين « الدينية والدنيوية » و « الكهنوتية والعلمانية ». فإن اللاهوت والدولة متماثلان متطابقان في

المجتمع الإسلامى . وفي هذه الذاتية الاجتماعية — حيث ينتفى التفاضل بين عناصرها — — نجد المصلحة والمضمون الدنيويين يهيمنان على المعنى الدينى بحيث تبدو علاقة الكنيستين الأرثوذكسية والبروتستانتية بالسلطة السياسية — إن قورنتا بالإسلام — وكأنهما بعيدتان عن السياسة والشئون الدنيوية .

على أن التحام الدين بالدولة في الإسلام قد ظل دواماً المثال الأعلى لبعض بابوات المسيحية الغربية الذين تاقوا لتخليص المجتمع المسيحى من انقسامه إلى كنيسة ودولة عن طريق إدماج الدول المتفككة والإقليمية لمسيحية القرون الوسطى الغربية في كيان اجتماعى تضمه كنيسة روما بين طياتها وتطلق عليه إسم « الجمهورية المسيحية . لكن عجزت الكنيسة تماماً عن تحقيق أملها المرتجى في اندماج الدين والدولة مثلما حققه الإسلام .

وعلى أساس النظرية التى تُقدِّر الانهيار للدين الذى يستخدم القوة ؛ يزعم بعض المؤرخين بأن الهجرة توقيت انهيار الإسلام روحانياً ، لانوقيت قيامه . لكن يعترض على هذا الزعم بالسؤال التالى : كيف تفسِّر حقيقة ثابتة مدارها أن ديناً فاجأ العالم عقيدة دينية لجماعة حربية بدوية يقيّض له التوفيق في التحوّل إلى عقيدة دينية عالمية على الرغم من بدايته — كما يزعم البعض — بقيد روحاني كان يتوقع أن يصبح حائلاً دون انتشاره ؟

يرد توينبي على السؤال بالقول بضرورة أن يُسقط الباحث من حسابه الفكرة التى ما برحت شائعة عند المسيحيين التى تغالى في تقدير أهمية القوة المادية في انتشار الإسلام . ذلك لأن الأسس التى تطلبها خلفاء النبى للإيمان بالدين الجديد اقتصرت على تأدية عدد من الفرائض لم يكن تأديتها بالأمر الشاق كثيراً ، بل لم تتعد المطالبة بها الجماعات الوثنية البدائية التى كانت تقطن المناطق العربية التى ظهر الإسلام في ربوعها والتى لم تخضع لسلطان أى من الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية . أما بالنسبة لولايات هاتين الامبراطوريتين المغزوة فلم يكن الاختيار بين الإسلام أو القتل ولكن بين الإسلام أو الجزية . وتلك سياسة مستنيرة أجمعت الآراء على امتداحها .

كذلك لم يطبّق هذا الاختيار تطبيقاً منفراً على الرعايا غير المسلمين للخلافة الإسلامية في العهد الأموى .

ولقد أصبح على الإسلام في ظل هذه الظروف أن يسلك طريقه بين رعايا الخلافة من غير العرب مستنداً على مزاياه وفضائله الذاتية . وكان انتشاره بطيئاً ، لكنه مؤكّد . وكيّف معتنقو الإسلام الجدد — من غير العرب — المبادئ الإسلامية وفق منحاهم التفكيرى . واستطاع الإسلام وهو في هذا الثوب أن يغدو الدين الموحد لعالم كان قد سبق توحيده سياسياً في صورة سطحية بفضل الغزو العربي الجارف . ويقرر توينبى أن انتشار الإسلام الذريع في غضون الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والثالث عشر الميلاديين كان حصيلة حركة شعبية تلقائية ولم تنجم قط عن ضغط سياسى .

ذلك أن ما يقابل في الإسلام من أباطرة مسيحيين مثل ثيوديسيوس ويوستنيان — اللذان أساءا استخدام السلطة السياسية في سبيل مصالح دينهما المزعومة — قليل العدد في الإسلام ومتباعداً في ثنايا قائمة من الخلفاء العباسيين اتسع نطاقها طوال فترة خمسة قرون .

وإذا كان الإسلام قد اندفع من شبه الجزيرة العربية إبان القرن السابع الميلادى : عقيدة اقتصرت في بداية الأمر على العرب وحدهم ، إلا أنه لم يأت القرن الثالث عشر الميلادى حتى غدا الإسلام ديناً عالمياً تفيء إلى ظله الأقوام التى هجرتها دعاتها بعد انهيار الخلافة العباسية . ولا جرم أن عقيدة دينية توفق التوفيق كله تحت تأثير فضائلها الذاتية في الفوز بولاء الناس لها : عقيدة لايستند بقاؤها أو زوالها — كما يقول توينبى — على أهواء تلك النظم السياسية التى تنشد استغلال العقيدة لتحقيق غايات تجافي مبادئها ؛ ليعتبر انتصارها الروحاني أعجب مثال يبين أنه وإن حلّت الكوارث بالأديان العالمية الأخرى التى رنت لتحقيق غايات سياسية ، فإن الإسلام — عكسها — لم يؤثر فيه هذا الاتجاه الذى دمر الأديان الأخرى روحانياً . وهذا ما يبديه استقراء اتجاه الإسلام السياسى منذ عهد الرسول نفسه ثم في عهد خلفائه

من بعده . فإن هجرة النبي من مكة إلى المدينة قد جعلت منه سياسياً فذاً عوضاً عن بقائه بمكة نبياً قليل الحظ من الأتباع والأنصار وموضع اضطهاد الأوليجاركية الحاكمة .

وإذا كان استخدام العقيدة الدينية الإسلامية قد عرّض الإسلام للمخاطر التي تعرّضت لها العقائد الدينية الأخرى التي استخدمت الدين أداة لإدراك أهداف سياسية ؛ لكن الإسلام سلم وحده من هذه المخاطر .

وهكذا تبين بمرور الأجيال — كما يقول توينبي — عِظم الرسالة الروحية التي بلغها محمد إلى البشرية . وإذا كانت الأديان العليا الأربعة التي ماتزال قائمة في القرن العشرين (الإسلام والمسيحية والهندوكية والبوذية في تعبير توينبي) مجرد ألوان أربعة لمنهج واحد ، فإن الإسلام — في رأيه — قد أعاد توكيد وحدانية الله في مقابل الضعف البادى في تمسك الأديان الثلاثة الأخرى بهذه العقيدة الجوهرية .

٣ — وحدة العرب السياسية بفضل الاسلام

لايجد توينبي في الانتصارات الخاطفة والكاسحة للدولة الإسلامية في بداية عهدها سراً يستعصى على التفسير مثلما يراه غيره من المؤرخين . إذ يعزوها للحروب الضارية التي نشبت بين الإمبراطوريتين الساسانية والرومانية فأوهنت قواهما . وكان العراق أساس الإمبراطورية الأولى وتمركزت الثانية على البحر المتوسط . فلقد انقلبت مناوشات الحدود والحروب المحدودة بين الدولتين لاقتطاع إقليم على حدود هذه أو تلك : انقلبت إلى صراع مميت استنزف قوى الدولتين مما هيأ للعرب القضاء عليهما معاً . وكان العرب قد استفادوا من حروب الدولتين . فإنهم قد استحوزوا على أموال وأسلحة وفيرة بفضل التحاقهم بجيوش الدولتين جنوداً مرتزقة كما حصلوا على خبرة طيبة باستخدام هذه الأسلحة ، وكان الجواد أثمن ما وفقوا للحصول عليه.

وبالتالى ؛ أصبح العرب وقت هجرة الرسول مهيئين من الناحية المادية تماماً لأن يصبحوا غزاة العالم ، لكنهم افتقروا إلى شيء حيوى تمثل في الوحدة

السياسية . فلما منحهم الإسلام إياها ، ماكانت لتقف أمام اكتساحهم أراضى الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية أية عقبة . وها هنا يقرر توينبى أن فئة قليلة من العرب قد آمنت بالإسلام لذاته ؛ فلقد ناهضت جمهرة العرب — في البداية — السلطان السياسى الذى فرضته عليهم الدولة الإسلامية الناشئة ، إذ لم يستمرئوا الخضوع لسلطان يثرب متحالفة مع عدد من المهاجرين المكيين . ويستدل توينبى على رأيه هذا باندلاع حروب الردة مما ألجأ تلك القلة التى ثبتت على ولائها للإسلام ، لرد جمهرة العرب إلى حظيرته باستخدام القوة العارمة . لكن ماكانت هذه القوة لتجدى في إلزام العرب ببذل الولاء المطلق للإسلام لولا ما أسبغه عليهم إسلامهم من وحدة سياسية كانت سلاحهم المعنوى البتار الذى مكّنهم من اجتياح أملاك الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية واستثمار الأراضى الغنية مما رفع مستوى العرب المادى إلى درجة لم يتصوروا تحققها لهم إلا في عالم الجنة الموعودة لأولى الفضل .

ويقارن توينبى ما فعله محمد للعرب بما فعله فيليب المقدوني من توحيد الهلينيين سياسياً ما مكّنهم من اجتياح الإمبراطورية الفارسية . ومهما يكن من أمر ما حققته الوحدة السياسية التى فرضتها الدولة الإسلامية على العرب فمن رأى توينبى أن القدَرَ قد ادخر للإسلام أن يغدو عقيدة عالمية سواء تحققت وحدة العرب السياسية — وما تلا هذه الوحدة من غزوات — أم لم تتحقق . ذلك لأن محمداً قد أهاب بمواطنيه أهالى مكة أن ينبذوا عبادة الأصنام المحلية التى أودعوها جوف الكعبة وأن يكرّسوا أنفسهم لعبادة الإله الحق الفرد الصمد رب الكون بأسره . وقد جرّ هذا على النبى عداء أوليجاركية مكة الحاكمة . لكن تاق العرب لأن يصبحوا أهل كتاب مثل الشعوب التى كانت تحيط بهم من كل جانب لما أضفته هذه الصفة على تلك الشعوب من تقدم مادى وحضارى كانا موضع حسد العرب الوثنيين ، وكانوا يشعرون بضعة المنزلة وانحطاط المكانة تجاه تلك الشعوب . على أن نزعة العرب الاستقلالية كانت تحول — في رأى توينبى — دون اعتناقهم المسيحية أواليهودية : وهما ديانتان غريبتان على البيئة والعقلية العربيتين . إذ نظر العرب إلى المسيحية على أنها العقيدة الدينية القومية للرومان وإلى اليهودية على أنها عقيدة اليهود

القومية . ويخلص توينبي من ذلك للقول بأن من ضمن أسباب إقبال العرب على اعتناق الإسلام الاعتقاد بأنه عقيدة قومية للعرب ترفع من مستواهم الفكرى إلى الدرجة التى بلغها اليهود والرومان بفضل اليهودية والمسيحية على التوالى . لاسيما وقد شاع في نفوسهم الإيمان بأنهم في تعبير توينبي شعب الله المختار الذى انحدر من صلب ابراهيم عن طريق ولده البكر اسماعيل من هاجر المصرية عوضاً عن اسحاق أبي اليهود . وأسبغ الإسلام على العرب قوة عسكرية بفضل توحيده قبائلهم المتنابذة داخل نطاق كومنولث إسلامى. وانحدر السيل الإسلامى على الممتلكات الرومانية والساسانية باعتباره الدين القومى للفاتحين العرب .

ولكن ما أن استقر الفتح الإسلامى حتى انتزع الرعايا المسيحيون والمجوس — من أسلموا — من العرب مكانتهم السياسية المرموقة في الدولة الإسلامية. فجعلوا من الإسلام تنظيماً أزالوا عنه صفته الإقليمية . وهكذا ؛ انتصر الاتجاه العالمى وأصبح الإسلام عقيدة دينية سامية لجميع الشعوب والأجناس وبفضل ذلك انتشر في جميع أنحاء العالم . واستكمل الإسلام استطالته الروحية والثقافية بفضل جهود سكان جنوب غربي آسيا وهم ورثة الثقافتين السورية والهلينية .

٤ ـ الحضارة الاسلامية

يلاحظ توينبي بحق أن الإسلام قد ازدهر في ذات المنطقة التى نشأت بها جميع الحضارات الكبرى : أى الشرق الأدني الذى شاهد ثورة العصر العصر الحجرى الحديث وعاين قيام أول زراعة في تاريخ البشرية وتأسيس المدن وحُكْم أول الملوك وتصنيف الأدبيات . وإذا كان الاتصال الحضارى قد انقطع ؛ لكن لم تفقد المنطقة طاقتها الإبداعية التى تبدّت بأجلى مظاهرها في انبعاث الحضارة الإسلامية : ذلك الانبعاث الذى يعدّه توينبي — هو والمسيحية — أطيب ثمرتين تحظى بهما النفوس البشرية . ويعتبر توينبي الإسلام نداً للمسيحية وقريناً لها ، وينعى على بعض المؤرخين الغربيين — وبخاصة كروبر Kroeber في كتابه طبيعة الثقافة The Nature of Culturre — الترى

في خطأ بالغ إذ يتهمون الإسلام بمناهضة المسيحية ومعاداة الفلسفة الهلينية وكراهية المدنية عامة ، وادعائه — أى كروبر — بأن الإسلام يكره الفن ويتسم بثقافة ضحلة ، محتجاً بظهور الإسلام في منطقة أصبحت بورا ومواتاً من الناحية الثقافية . وهذه مفتريات يدحضها توينبي بالقول بأن العراق وقت ظهور الإسلام كان دعامة للإمبراطورية الساسانية سياسياً وثقافياً . وأن سوريا ومصر كانتا بالمثل العمود الفقرى للإمبراطورية البيزنطية . وتجلّت طاقات البلاد الثلاثة الحضارية وقتما أعاد الفتح العربي توحيدها سياسياً لأول مرة منذ أن تفككت الامبراطورية الفارسية قبل ذلك بألف سنة تقريباً . ففى ظل الخلافتين الأموية والعباسية استعادت منطقة جنوب غربي آسيا ومصر مركزيهما باعتبارهما قلب العالم النابض ، مثلما كانتا طوال ثلاثة آلاف سنة قبل العهد الإسلامى الزاهر.

ويسلّم توينبي بأن أهمية هذه المنطقة التاريخية قد تداعت بعد ذلك ؛ لكنه ينكر تماماً أن الإسلام سبب خسوفها الحضارى ، ويرى أن تداعيها لم يحدث إلا بعد بلوغ الإسلام مرحلة النضوج السياسى والثقافي . ثم يقرر بأن المنطقة آخذة في استعادة أمجادها . وتستمد المنطقة أهميتها الحيوية — مثلما كانت تستمدها في الماضى — من مصدرين أساسيين :

(الأول) موقعها الجغرافي في مركز شبة المواصلات العالمية . وقد استعادت أهميتها في هذا المجال بعد افتتاح قناة السويس . وكانت قد فقدته منذ كشف طريق رأس الرجاء الصالح .

(الثاني) سيطرتها على أكبر نسبة من احتياطيات العالم من النفط . وكانت في الماضى أكبر منتج للحبوب في العالم . وتوشك أن تغدو أكبر منتج للنفط

ويتساءل توينبي عن علاقة الإسلام — كعقيدة دينية — بالحضارة الإسلامية . ويجيب عن ذلك بأن الحضارة الإسلامية قد وفدت مع العقيدة الدينية الإسلامية ؛ وتتفق في هذا المجال مع المسيحية . ففى الحالتين انبعثت العقيدة الدينية واستكملت نموها في إطار ثقافي واجتماعى أقدم عهداً من العقيدة الدينية نفسها . وجانب من هذا الإطار أجنبي عن العقيدة : بعض

الشيء . ولما أن ذوت الحضارة الأجنبية القديمة استولدت العقيدة الدينية حضارة جديدة أطلقت عليها إسمها بحق ، لأنها تحمل — بلا جدال — طابع تلك العقيدة المميز .

فالديانة المسيحية قد ظهرت واستكملت نموها في إطار الحضارة الهلينية ، ولم تتبدل معالم الحضارتين المسيحيتين (أى الغربية والشرقية وفقاً لتقسيم توينبى) قبل الفترة الواقعة بين النصف الثاني من القرن الرابع والنصف الثاني من القرن السابع الميلاديين ، وقتما كانت الحضارة الهلينية تتحلل وكانت المسيحية في إبان حقبة تشكيلها ديانة أقلية يعيش أفرادها أغراباً في عالم أجنبى عنهم تماماً .

واستكمل الإسلام نموه في بيئات حضارية غريبة عنه : المسيحية النسطورية ، المسيحية المينوفيستية ، الزرادشتيه الإيرانية . وعاش أفراد الأقلية الإسلامية في بيئة لايملكون من أمرها شيئاً ، وإن لم يُقيموا في السراديب مثلما آوت إليها الأقلية المسيحية .

ولم تستطع الديانتان (المسيحية والإسلام) استيلاد حضارات جديدة إلا بعد انتشارهما على نطاق واسع وصيرورة الديانة عقيدة الأغلبية . وتم ذلك بالنسبة للمسيحية في عالم البحر المتوسط في غضون فترة ثلاثة قرون تنتهى في القرن السابع الميلادى ، وبالنسبة للإسلام في غضون فترة تنتهى في القرن الثالث عشر ؛ وكان المسلمون قبل ذلك أقلية في بلاد العالم الإسلامى. ويلاحظ توينبى إنتشار الإسلام بين أتباع الزرادشتيه (في إيران وحوض نهرى سيحون وجيحون) بأسرع كثيراً من انتشاره بين رعايا الإسلام من المسيحيين. بيد أن التحوُّل إلى الإسلام لم يتخذ سبيله في أى بلد خاضع لسلطانه إلا بعد أن هددت الغزوات البربرية الكيان الإسلامى . ومصداقاً لهذا الرأى ؛ يعزو توينبى إقبال المصريين وسكان جنوب غربي آسيا على اعتناق الإسلام إلى حملات الصليبيين والمغول . فلقد دفعت المجتمع الإسلامى للتماسك الروحى تجاه الجائحة التى كانت تهدد باقتلاعه من أساسه ، ويقرر بأن المسيحية الغربية لو كانت قد سيطرت على آسيا عوضاً عن العرب والأتراك ، لما بقى أثر

للكنيسة اليونانية ، وما تسامحت مع الإسلام مثلما تسامح المسلمون مع المسيحية في الأراضى التى خضعت لهم ، وذلك على الرغم مما ينص عليه الإسلام من جهاد المشركين وما توجبه المسيحية من المحبة والتسامح .

فالحضارة الإسلامية قد انبعثت — وفقاً لرأى توينبى — بعد القرن الثالث عشر (أى بعد صيرورة الديانة الإسلامية العقيدة الروحية لغالبية الخاضعين لسلطان الإسلام الدنيوى ، أى بعد استئصال هولاكو الخلافة العباسية في بغداد .

٥ ـ المجتمع الاسلامى

عند بحث توينبى أساس المجتمع الإسلامى ، يميز فيه :
دولة عالمية ، نظام دينى عالمى ، هجرة شعوب .

فالدولة الإسلامية العالمية هى الخلافة العباسية في بغداد . ومن رأيه أن قيامها في القاهرة بمثابة استحضار طيف خلافة بغداد : أى أنه ظاهرة من نفس نوع الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

والنظام الدينى العالمى هو الإسلام نفسه بالطبع .

وحدثت فترة هجرات الشعواب عندما خرّبت أملاك الخلافة بفعل بدو من أتراك ومغول سهب أوراسيا وبدو البربر في شمال أفريقيا ، وبدو شبه الجزيرة العربية .

وتشمل فترة الفراغ التى استغرقتها هذه الهجرات : القرون الثلاثة تقريباً بين عامى ٩٧٥ و١٢٧٥ ميلادية . وتعتبر السنة الأخيرة بدء المجتمع الإسلامى كما نجده في عالم اليوم .

ومن رأى توينبى أن للمجتمع الإسلامى توأمين هما : المجتمع الإيراني والمجتمع العربي . ويتشابه المجتمع الإسلامى في هذا الشأن مع المجتمع الهلينى الذى استولد توأمين هما : الغربي (الكاثوليكى البروتستانتى)

والشرقي والأرثوذكسى . ولكن بينما عاش المجتمعان المسيحيان جنباً إلى جنب قرابة الألف عام بعد انتهاء المجتمع الهلينى ، فأن أحد التوأمين في المجتمع الإسلامى قد ابتلع التوأم الآخر وضمه إليه ، ويتمثل هذا فى رأى توينبي في استيلاء الخلافة العثمانية على البلاد العربية

وليس الإنشقاق الدينى مبعث التباين بين المجتمعين الإسلاميين ، كما كان الحال بالنسبة للمجتمعين الأوربيين. فنه وإن تشعّب الإسلام إلى طائفتى أهل السنة والشيعة — كما تفرعت المسيحية إلى الكاثوليكية والأرثوذكسية — إلا أن هذا الانشقاق الدينى في الإسلام لم يتطابق أبداً في أية مرحلة مع الانقسام بين المجتمع العربي الإسلامى والمجتمع الإيراني الإسلامى . وذلك على الرغم من أن الانشقاق قد مزّق مع الزمن المجتمع الإيراني الإسلامى عندما ساد المذهب الشيعى في فارس خلال الربع الأول للقرن السادس عشر الميلادى واستطاع المذهب الشيعى بذلك أن يستقر في مركز المحور الأساسى للمجتمع الإيراني الإسلامى (ويمتد شرقاً وغرباً من أفغانستان إلى الأناضول) تاركاً المذهب السنى يسود جانبي هذا المحور : أى في طرفي العالم الإيراني وفي البلاد العربية إلى الجنوب والغرب .

ويعقد توينبي مقارنة بين توأمى مجتمع الإسلام وتوأمى مجتمع المسيحية فالمجتمع الإسلامى الذى ولد فيما يمكن تسميته المنطقة الفارسية التركية — أو الإيرانية — يشابه المجتمع الغربي بعض الشئ .

بينما المجتمع الآخر الذى ظهر فيما يمكننا تسميته المنطقة الغربية يشابه بعض الشئ المجتمع المسيحى الأرثوذكسى. فمثلاً ؛ يذكّرنا طيف الخلافة العباسية الذى استحضره المماليك في القاهرة إبان القرن الثالث عشر الميلادى بطيف الإمبراطورية الرومانية الذى استحضره الإمبراطور لاوون السورى في القسطنطينية في القرن الثامن . ولقد كان نظام المماليك السياسى متواضعاً

نسبياً كنظام لاوون ، إلا أن نظام لاوون أعظم تأثيراً وأطول عمراً من امبراطورية تيمور في المنطقة الإيرانية المجاورة ، وكانت هذه متسعة الأرجاء قصيرة الأجل وتشبه في ظهورها واختفائها امبراطورية شارلمان .

وثمة شبه آخر : كانت اللغة العربية لغة الثقافة في المنطقة العربية وفي الخلافة العباسية ببغداد . في حين وجدت المنطقة الإيرانية في اللغة الفارسية أداة التعبير والثقافة ، وهى لغة هذبها تطعيمها بالعربية على غرار تهذيب اللغة اللاتينية بتطعيمها باليونانية .

وأخيراً كان قيام المنطقة الإيرانية من المجتمع الإسلامى بغزو المنطقة العربية منه وامتصاصها الذى حدث في القرن السادس عشر ، له ما يماثله في عدوان في المسيحية الغربية على المسيحية الأرثوذكسية خلال الحروب الصليبية . وعندما بلغ هذا الاعتداء الأخير ذروته عام ١٢٠٤ ١٢٠٤ ميلادية — وقتما تحولت الحروب الصليبية إلى حرب ضد القسطنطينية — بدا حينذاك كما لو أن المسيحية الأرثوذكسية ستغزوها شقيقتها الأخرى الأخرى وتمتصها نهائياً . وكان هو المصير الذى أصاب المجتمع العربي العربي بعد ذلك بثلاثة قرون تقريباً ، عندماأطاح الباديشاه العثماني سليم الأول بالمماليك وأزال الخلافة العباسية في القاهرة عام ١٥١٧ ميلادية .

٦ — الغرب الحديث والاسلام

عند بداية الفصل الحديث من التاريخ الغربي ، كان هناك مجتمعان إسلاميان شقيقان وقد انتصبا ظهراً لظهر يسدان جميع مسالك الإتصال بين ممتلكات المجتمعين الغربي والروسى وبين سائر بقاع العالم القديم .

١ — إذا كانت الحضارة العربية الإسلامية ما تزال عند نهاية القرن الخامس عشر تهيمن على الشاطىء الإفريقى المطل على المحيط الأطلسى والممتد من بوغاز جبل طارق حتى السنغال . فكان العالم المسيحى — والحالة هذه — مقطوع الصلة براً بأفريقيا الإستوائية . بينما كانت موجات التأثير العربي تتدافع إلى القارة السوداء ، لا على طول حدها الشمالى في السودان

خارج الصحراء الكبرى فحسب ؛ ولكن كذلك على طول ساحلها الشرقي المعروف بـ « السواحلى » على شاطىء المحيط الهندى . والحق ؛ غداً هذا المحيط بحيرة عربية لم يكن للبنادقة — شركاء الوسطاء المصريين في التجارة — سبيل إليه . وكانت السفن العربية لا تقنع بارتياد الشاطىء الأفريقى في كل مكان من السويس حتى سوفالا ، وإنما كانت تشق طريقها كذلك إلى أندونيسيا فانتزعت مجموعة الجزائر الأندونيسية من الديانة الهندوسية وضمتها إلى حظيرة الإسلام . ثم اندفعت شرقاً لتقيم مركزاً في غربي المحيط الهادى ، إذ هدت إلى الإسلام سكان جنوبي الفلبين من عنصر الملايو .

٢ — وكانت الحضارة الإيرانية الإسلامية تشغل في الوقت نفسه مركزاً استراتيجياً ، بدا أقوى من ذلك الذى تمتعت به الحضارة العربية . فلقد احتل بناة الإمبراطورية « العثمانيون » القسطنطينية والمورة وقزمان وطرابيزون ، وحولوا البحر الأسود إلى بحيرة عثمانية باستيلائهم على مستعمرات جنوا في شبه جزيرة القرم . ومدت الشعوب الإسلامية الأخرى التى تتحدث التركية سلطان الإسلام من البحر الأسود إلى المجرى الأوسط لنهر الفولجا . ومن خلف هذه الجبهة الغربية ، اتسع العالم الإيراني صوب الجنوب الشرقي حتى وصل إلى المقاطعتين الصينيتين « كانصو » و « شنسى » الواقعتين في شمال غرب الصين . كما امتد الإسلام عبر إيران والهند إلى البنغال والدكن .

كانت هذه الكتلة الإسلامية — الحاجزة — تحدياً استثار رد فعل قوى بين الجماعات الرائدة في المجتمعين المسيحيين المتعاصرين :

ففى العالم المسيحى الغربي ؛ ابتكرت الشعوب الساكنة على شواطىء الأطلسى — في القرن الخامس عشر — طرازاً جديداً من السفن العابرة للمحيطات ، يتكون من ثلاث صوارى وموثق حبال مربع للأشرعة ، ثم اشتمل فيما بعد على أشرعة السفينة من مقدمها حتى مؤخرها . ومكن هذا الإختراع السفينة من البقاء في عرض البحر شهوراً بدون انقطاع دون أن تضطر السفينة إلى أن ترسو على ميناء . وباستخدام هذا الطراز من السفن ، استطاع الملاحون البرتغاليون — بفضل تجاربهم في الملاحة في أعالى البحار —

كشف طريق رأس الرجاء الصالح والوصول إلى جزائر مادیرا حوالى عام ١٤٢٠ م وجزائر الآزور عام ١٤٣٢ م . ثم نجحوا في تطويق الجبهة العربية البحرية على الأطلسى بدورانهم عام ١٤٤٥ م حول الرأس الأخضر وبلوغهم خط الإستواء عام ١٤٧١ إلى كاليكوت على الساحل الغربي للهند ، وسيطرتهم عام ١٥١١ على بوغاز ملقا ، واندفاعهم في غربي المحيط الهادى ليرفعوا علمهم في كانتون عام ١٥١٦ وعلى شاطىء اليابان عام ١٥٤٢ — ١٥٤٣

وهكذا في لمحة البصر ؛ اختطف البرتغاليون من أيدى العرب السيادة البحرية على المحيط الهندى . وبينما كان الرواد البرتغاليون المتجهون شرقاً يحدقون — بحركة خاطفة من التوسع البحرى للغرب — بالعالم العربي الإسلامى من الجنوب ؛ كان ملاحو الأنهار من القوزاق يتجهون شرقاً ويوسعون حدود العالم الروسى بنفس السرعة والإكتساح ، وتم ذلك بحداقهم بالعالم الإيراني الإسلامى من الشمال . ولقد فتح الطريق أمام القوزاق القيصر المسكوفي إيفان الرابع حين استولى على قازان عام ١٥٥٣ . إذ كانت قازان قلعة العالم الإيراني الإسلامى عند حدوده الشمالية الشرقية . وبعد سقوطها ؛ لم يعد ثمة عقبة — عدا الغابات والصقيع وهما حليفان تقليديان عرفهما البدو من محاربى القوزاق — تحول بين طلائع المسيحية الأرثوذكسية الروسية وبين عبور الأورال وشق طريقهم شرقاً على طول الممرات المائية في سيبريا . حتى انتهى بهم المطاف للتوقف لعثورهم مصادفة في عام ١٦٣٨ على المحيط الهادى ، وفي ٢٤ من مارس سنة ١٦٥٢ على المستنقعات الشمالية الشرقية لإمبراطورية المانشو . وهكذا ؛ استطاع العالم الروسى المنتشر — بوصوله إلى تلك الحدود الجديدة — الاحداق ، لا بالعالم الإيراني وحده ، ولكن بالسهوب الأوراسية كذلك .

ففى غضون فترة تقل عن القرن ؛ لم يقتصر الأمر على الإحداق بالعالم الإسلامى — الذى كان شركة بين المجتمعين العربي والإيراني — ولكن أمكن تطويقه تماماً . ففى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر — كما يقول توينبى — وضع الطوق حول رقبة الفريسة .

على أن المفاجأة التى تم بها إيقاع العالم الإسلامى في تلك الحبائل ؛ لم تكن شيئاً خارقاً للعادة . كما انقضى وقت طويل قبل أن يتنبه المسلمون إلى ما يجب عليهم عمله لمجابهة الموقف . وتبلورت خطة الجانبين الغربي والروسى في الإنقضاض على فريسة اتضح لهما أنها عاجزة عجزاً واضحاً .

وسعى العالم الإسلامى من جانبه للإفلات من تلك الضائقة العصيبة .

وما لبثت الأحوال أن تطورت في صالح الإسلام . فلا تزال دار الإسلام في عصرنا الراهن سليمة الجوهر ، فلم ينتقص منها سوى بضع مقاطعات من أطرافها أما اللب الأساسى (الممتد من مصر إلى المحيط الأطلسى ومنها إلى خليج البنغال والملايو وأندونيسيا ، ومن تركيا إلى اليمن) فأصبح حراً من أى حكم سياسى أجنبى أو حتى سيطرة أجنبية . فلقد استطاعت مصر والأردن ولبنان وسوريا والعراق ودول المغرب انتشال نفسها من طوفان الإمبريالية البريطانية والفرنسية التى غمرتها واحدة بعد أخرى . وتعزز موقف العالم الإسلامى باستقلال معظم البلاد الإفريقية وببعضها أكثرية مسلمة مثل الصومال والسنغال وغينيا ومالى ونيجيريا وموريتانيا أو أقليات إسلامية ضخمة في البعض الآخر .

ومن رأى توينبى أن رواسب التهديد لقلب العالم العربي لم تعد تفد من الدول الغربية في الملابسات الثلاث الآتية :

الأولى — في الوقت الذى أصبح فيه ضغط الثقافة الغربية الحديثة الشغل الشاغل للشعوب الإسلامية — كما كان الروس وعلى عكس ما كان عليه المسيحيون الأرثوذكس في الإمبراطورية العثمانية إبان نفس الأزمة من تواريخهم — فإن تلك الشعوب الإسلامية لا تزال صاحبة مصيرها من الناحية السياسية . كما كان المسلمون ورثة تقليد حربي مجيد كان هو البينة على قيمة الحضارة الإسلامية في أعين أبنائها . ومن ثم ؛ كان انكشاف تضعضها العسكرى في العهد الأخير — بفعل منطق أخفق في تبرير الهزيمة في المعركة — كان هذا أمراً مفاجئاً ، بقدر ما كان مهيناً لهم .

ذلك لأن رضاء المسلمين عن إقدامهم العسكرى التاريخى ، قد بلغ من عمق تأصله في نفوسهم أن الدرس الذى تضمنه تحول المد الحربي ضدهم عقب إخفاقهم أمام فيينا عام ١٦٨٣ م لم يؤثر في نفوسهم تأثيراً ذا بال إلا حين بلغ ذلك الدرس مداه — بعد ذلك بنحو قرن — فوصل الأمر إلى حد تهديد المسلمين بطردهم من عقر ديارهم . وحدث ذلك عقب نشوب الحرب بين الإمبراطورية العثمانية ورسيا عام ١٧٦٨ . إذ قيل للأتراك أن الروس قد عزموا على جلب أسطول بحر البلطيق ينزلونه إلى المعركة ، فكان أن رفض الأتراك بعناد أن يصدقوا أن ثمة طريقاً بحرياً يصل ما بين البلطيق والبحر المتوسط حتى وصل الأسطول الروسى فعلاً . وشبيه بذلك أن مراد بك القائد العسكرى المماوكى حين حذره تاجر بندقي من أن استيلاء نابليون على مالطة قد يكون مقدمة لنزول مصر ، انفجر ضاحكاً من سخف هذه الفكرة .

الثانية — أعقبت هزيمة العالم العثماني في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر — بفعل أداة الحرب الغربية الحديثة — على نحو ما حدث في العالم الروسى قبل ذلك بقرن — حركة اقتباس غربية اندفعت من أعلى المجتمع إلى أدناه : حركة بدأت بإعادة تشكيل القوات المسلحة على النظم الغربية .

لكن كان ثمة على الأقل نقطة خلاف واحدة ذات أهمية رئيسية اختلفت فيها السياسة العثمانية عن السياسة البطرسية . فإن بطرس الأكبر قد أدرك — بفراسة العبقرى — أن سياسة الاقتباس من الغرب ، يجب أن تشمل على كل شيء البتة . إذ أدرك أنه لكفالة النجاح لتلك السياسة ؛ عليه تطبيقها لا على الجانب العسكرى وحده ، ولكن على سائر مرافق الحياة. ولم ينجح النظام البطرسى قط في تحويل أكثر من ظواهو الحياة في المدن على الأساليب الغربية ، ثم انتهى به الأمر إلى تأديته جزاء إخفاقه في التأثير في جموع أهل الريف ، وهذا الجزاء هو سيطرة الشيوعية على روسيا . وعلى الرغم من سياسة بطرس الأكبر في حركة الاقتباس من الغرب ، فإن ماحدث إذ ذاك من وقف المد الثقافي لنظام بطرس الأكبر قبل أن يبلغ أهدافه كاملة ؛

لايرجع إلى قصر نظر القيصر نفسه ، بقدر ما يرجع إلى افتقار الجهاز الإدارى الروسى إلى قوة دافعة كافية .

وأما في تركيا ؛ فإن المؤمنين — على كره منهم — بسياسة تنظيم القوات المسلحة العثمانية على النسق الغربي ، قد لبثوا طوالى قرن ونصف قرن منذ اندلاع الحرب الروسية التركية عام ١٧٦٨ حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ ؛ يتشبثون بوهم إمكان الانتقاء والاختيار من العناصر الثقافية الأجنبية التى يعتنقونها . هذا رغما عن المظاهر المتتابعة المؤلمة لهذا الضلال الذى أوغلوا فيه . ولبثت الحال على هذا المنوال حتى جاء مصطفى كمال ورفاقه عام ١٩١٩ فاندفعوا دون تحفظ — على غرار المنهاج البطرسى — نحو سياسة شاملة للاقتباس من الغرب .

الثالثة — تبدو الدولة القومية التركية أقامها مصطفى كمال عملا ناجحاً لم يتحقق مثله كثيراً في البلاد الإسلامية الأخرى . فإن عملية صبغ مصر بالصبغة الغربية التى بدأها المغامر الألباني محمد على خلال الربع الثاني من القرن التاسع عشر وإن كانت أكثر شمولا من أية محاولة سعى لتحقيقها وأنجزها السلاطين الأتراك في الحقبة نفسها ؛ هذه العملية تحولت إلى فساد في إبان خلفائه . وأظهرت في مجملها أنها « هجين » غربي إسلامى يضم على السواء طائفة من أسوأ مظاهر الحضارة الأصيلة والحضارة المقلدة . وحاول أمان الله خان في أفغانستان أن يحاكى — كالقرد — ما أنجزه مصطفى كمال في تركيا في ميدان أشد وعورة ؛ فكانت تجربة نظر إليها — وفقاً لوجهات النظر المختلفة — كمأساة أو ملهاة ، لكنها على أى الحالتين لاتنجو من الحكم عليها بالفشل .

ومن رأى توينبى أن نجاح أو إخفاق تجارب من نوع تجربة أمان الله خان ، لن يقرر مستقبل العالم الإسلامى في عالم النصف الثاني من القرن العشرين . ذلك لأن طالع العالم الإسلامى في المستقبل القريب متوقف — على أى حال — على نتيجة اختبار القوة بين العالمين الغربى والروسى اللذين يطوقان العالم الإسلامى فيما بينهما . ولقد تعاظمت أهمية العالم الإسلامى في نظر هذين المتحاربين منذ اختراع محرك الاحتراق الداخلى .

فللعالم الإسلام أهميته القصوى كمصدر للسلع الأساسية وكمعبر للمواصلات ويضم العالم الإسلامى ثلاثة مواطن من مواطن الحضارات الأربع الرئيسية في العالم القديم ، أى الحضارات : المصرية ، السومرية ، السندية ، والحضارة الرابعة هى الحضارة الصينية . والثروة الزراعية التى انتزعتها فيما مضى هذه المجتمعات — التى بادت اليوم — من وديان : النيل الأدني ، دجلة والفرات ، والسند: تلك الوديان التى استعصت في ماضى أيامها على الاستغلال ، هذه الثروة قد زادت في مصر والبنجاب ، واستعيدت جزئياً في العراق. وتم ذلك بفضل تطبيق الطرائق الغربية الحديثة في ضبط المياه . على أن أهم إضافة لموارد العالم الإسلامى الاقتصادية ؛ جاءت نتيجة اكتشاف النفط والانتفاع بمستودعاته الكامنة في باطن الأرض لم تكن لها في يوم من الأيام قيمة زراعية ذات شأن . أن التفجرات الطبيعية التى أحالها التدين الزرادشتى في العصر السابق للإسلام إلى قيمة دينية — إذ استعان بها ليبقى ضياء الشعلة الخالدة تمجيداً للنار المقدسة — قد حذرته في عام ١٧٢٣ عين بطرس الأكبر المتطلعة كرصيد اقتصادى كامن . وإذا كان الأمر قد استلزم انقضاء مائة وخمسين سنة أخرى قبل أن يؤكّد الاستغلال الاقتصادى لحقول الزيت في باكو صدق فراسة هذه العبقرية ؛ فلقد أظهرت بعد ذلك الكشوف الجديدة المتعاقبة باستمرار ، أن باكو ليست إلا حلقة في سلسلة ذهبية تمتد صوب الجنوب الشرقي عبر كردستان وبختيارستان الإيرانية حتى مناطق من شبه الجزيرة العربية اشتهرت بجدبها .

وأسفرت النتائج التى تلت التدافع نحو الزيت عن وضع سياسى متوتر . ذلك لأن نصيب روسيا من تلك الغنيمة في القوقاز وأنصبة الدول الغربية الكبرى في إيران والبلاد العربية تقع في نطاق سلسلة متصلة الحلقات .

ولقد زاد من حدة هذا التوتر ؛ تجدد أهمية العالم الإسلامى كنقطة إلتقاء للمواصلات العالمية . فإن أقصر الطرق بين روسيا والعالم الغربي — على طرفي المحيط الأطلسى — من ناحية ، والهند وجنوب شرق آسيا واليابان من الناحية الأخرى ؛ إن أقصر هذه الطرق يخترق أرضاً ومياهاً وأجواء إسلامية . وما

برح الاتحاد السوفيتي والغرب على خارطة المواصلات وعلى خارطة الزيت يقفان موقف الخطر متجاورين وجهاً لوجه .

وصفوة القول ؛ استطاع توينبي تعيين موضع الإسلام بفضل دراسة :

(أولاً) العقيدة الإسلامية كما انبعثت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وتطورت على أيدى المسلمين تحت تأثير البيئة والزمن .

(ثانياً) الدولة والمجتمع الإسلاميين . وقد وضع عليه الصلاة والسلام قواعدهما ثم استطالا في سرعة مذهلة .

(ثالثاً) ــ الحضارة الإسلامية ــ وهى نتاج فرعى للعقيدة الإسلامية .

(رابعاً) موقف البلاد الإسلامية من صراع القوى السياسية الدولية